

السلطان تيبو الشهيد (×) حياته و مآثره

بقلم : الأخ الأستاذ فيصل أحمد البهتكلي الندوي

هو حاكم ميسور ، الأبى الغيور ، السلطان العادل ، الكمي الباسل ،
البطل المجاهد ، الطموح الناهد ، الشجاع المغوار ، النجيد المقدام ، صاحب
العزيمة القاهرة ، والغيرة الثائرة ، ذو النفس الزكية ، والسيرة المرضية ، فتح
علي بن حيدر علي المعروف بـ "سلطان تيبو" .

☆ أسرته : قد تضاربت آراء المؤرخين في أصله ومحتده عربي أم إيراني أم
أفغاني أم بنجابي ، وحاول بعض المؤرخين التوفيق بين الآراء المتباينة ،
والأقوال المتناقضة ، بأنه من أصل عربي من قريش ، كانت أسرته توطن مكة
المكرمة ، حتى أواخر القرن السادس عشر المسيحي ، وغادرتها لكسب
القوت إلى بغداد ، ثم وجهتها صروف الدهر إلى إيران فأفغانستان فبنجاب
فدهلي فأجمير ، ثم مضت لسبيلها إلى جنوب الهند ، فنزلت في "غُلبرغا"
واستوطنتها ، ثم عمت وجهها في أواخر القرن السابع عشر الميلادي إلى
ميسور ، وعمل جده فتح محمد مؤظفاً في الجيش عند بعض ولاة المقاطعات

(×) بمناسبة مرور مأتي عام على قتل السلطان تيبو الشهيد ، أرى حقاً على أن أقدم إلى إخواني
العرب نبذة عن حياته الكريمة ، وسيرته النبيلة ، وأعماله الجليلة ، ومآثره العظيمة ،
ودوره الريادي الذي لعبه في تحرير بلاد الهند من أيدي الإنجليز الغاصبة ، فإن أكثر
العرب يجهلونه تماماً ، وإن هناك كتباً كثيرةً عنه باللغتين الأردية ، والإنجليزية ، و صدر
حديثاً كتاب جامع بالأردية ، بقلم : أستاذي الفاضل محمد إلياس البهتكلي الندوي حفظه
الله تعالى ، فالتقط نتفاً عن حياته ، وجل اعتمادي على الكتاب المذكور على أن عندي بعض
كتب أخرى ، سواء راجعتها واستفدت منها ، وخاصة "صحيفة السلطان تيبو" لمحمود
خان البنغلوري .

(السلطان "تيبو" الشهير، حياته ومآثره)

المجاورة لميسور إلى أن قتل في إحدى المعارك سنة ١٧٢٨ م ، وتوطنت أسرته بعد موته "سري رنكا فتنم" عاصمة ولاية ميسور آنذاك ، حيث انضم ابنه الفتى النابغ حيدر علي (أبو سلطان تيبو) إلى الجيش الميسوري ، وأبلى بلاءاً حسناً في ساحات القتال ، وأبدى في مدى قريبة مواهبه وكفاءته الحربية ، وكسب لنفسه مكاناً عظيماً ، وأعجب به "راجا ميسور" أي حاكمها الهندوسي إعجاباً شديداً ، حتى جعله القائد الأعلى في جيشه ومنحه وسام "بهادر" (الشجاع) .

ودفعته أسباب قاسرة إلى أن يمتلك زمام قيادة الحكومة بيده ، فتمكن منه واستتب له الأمر سنة ١٧٦١ م ، فقامت ضده الدسائس والمؤامرات فواجهها بحكمة وقوة حتى أخفقت وباءت بالفشل ، وبدأ يوسع رقعة حكومته يوماً فيوماً بخططه الحازمة وذكائه المفرط وحذاقته العسكرية ، وعاش حاكماً لولاية "ميسور" عقدين من عمره قضى كليهما في الحروب يفاضل القوات الطاغية التي تسعى في إزاحته عن الستار ومحوه من الوجود ، على رأسها الإنجليز الماكرون الذين ظلوا يحلمون بالسيطرة على الهند كلها بعد أن ظفروا بالتسلط على البنغال حين هزموا حاكمها "سراج الدولة" في سنة ١٧٥٧ م بعد حرب دامية ، ومن بينها والي حيدرآباد ، وحاكم أركات (بجوار مدراس) المسلمان اللذان تحالفا مع الإنجليز ، وهناك قوة رابعة وهي قوة "المرهته" الذين يضمرون له العداً ويحنقون عليه أشد الحنق ، فكان هؤلاء كلهم يتحينون الفرص للقضاء على حيدر علي فما استطاعوا ، وما زال حيدر علي يحرز النجاح تلو النجاح حتى مات عام ١٧٨٢ م ، وخلف وراءه لابنه حكومة تحتوي على ثمانين ألف مربع ميل وكانت حين ملكها منطقة صغيرة تتضمن ثلاثاً وثلاثين قرية .

☆ ولادته ونشأته :

أما بطلنا "تيبو" فولد ٢٠/ من ذي الحجة عام ١١٦٢ هـ ، الموافق ١٠/ من نوفمبر ١٧٥٠ م في قرية "ديون هلي" على بعد ثلاثة وثلاثين كيلو متراً من

بنغلور ، وتوسم حيدر علي في ابنه هذا النبوغ والتفوق فعني بتربيته وتنقيفه .. مع كونه أمياً بحتاً -- أشد العناية ، فتلقى "تيبو" العلوم الشرعية ، وحظى بالتربية الإسلامية ، وبرع في الفنون الحربية ، ولم يكد يبلغ السادسة عشرة من عمره حتى برز كجندي مفلق وعسكري فائق ، واشتهر ذكره وعظم قدره فولاه أبوه الأعمال العظيمة ، فباشرها أحسن مباشرة حازبها ودَّ أبيه واعتماده .

☆ جهوده لتحرير البلاد :

وكان السلطان وفيماً لوطنه إلى آخر المدى ، وهو أول زعيم هندي أدرك بعد نظره وفراسته النادرة خطر العبودية الغربية الوافدة في ظل الغزو العسكري البريطاني بل وخطر الحضارة الغربية الكامنة في العبودية ، وأنه إذا لم يوضع حاجز دونهم ، ولم تحدث عرقلة في سبيلهم سيسيطرون في مدة غير بعيدة على الهند كلها وستصبح هذه القارة الذهبية كلها لقمة سائغة لهم ، فعارضهم وتصدى لهم ، وكان أبوه قد اندفع إلى حرب مع الإنجليز ودارت بينهما رحى الحرب الأولى -- من تلك الحروب الأربع المشهورة بين حكومة ميسور المسلمة والإنجليز مع القوات المتحالفة السابق ذكرها -- سنة ١٧٦٧م ، وانقشع سحاب الحرب عن ظفر لحيدر علي حيث اضطر الإنجليز أن يجنحوا للسلم والهدنة مع تنازل عن بعض أغراضهم ، فقبل حيدر علي هذا الطلب وأعطاهم بعض الإعفاءات ، وذلك عام ١٧٦٩م ، وكان "تيبو" ساعداً وعميلاً لأبيه في هذه الحرب مع حداثة سنه .

وأما الحرب الثانية فاضطربت نارها سنة ١٧٨٠م وكانت الحرب قائمة على قدم وساق إذ مرض حيدر علي مرضاً لم يبل منه ، وانتقل إلى رحمة الله في ديسمبر سنة ١٧٨٢م ، ولم تنقطع الحرب بموته ، وتولى قيادتها السلطان تيبو ، واستمرت إلى ١٧٨٤م ، وظهرت تباشير النصر للسلطان ، ولما رأى الإنجليز أنه لا قوة لهم به لجأوا آخر الأمر -- كما كانت عادتهم -- إلى تدبير خدعة "الهدنة" فرضى السلطان بها وكان من مقدرته عندئذ أن يهزم الإنجليز

(السلطان "تيبو" الشهير ، حياته وآثره

هزيمة تقصع دولتهم وتقصم شوكتهم ، ولكن السلطان أثر المهادنة على المطاردة ، كي يتفرغ لتلمية البلاد وترقيتها وإسعادها .

والحرب الثالثة ؛ نشبت في مايو عام ١٧٩٠ م ، وكان النصر فيها حليفاً للسلطان بادئ ذي بدء ، ثم استمرت سجلاً ، وانتهت بالصلح بينهما كما مرت شقيقتاها من قبل ، ولكنها تختلف عنهما إذ أنهما كانتا انتصاراً للسلطان ، وهذه الثالثة استسلام ظاهر وانهزام بين له حتى احتجزت الإنجليز ابني السلطان الناشئين الحديثي السن رهينة إلى أن يؤدي غرامة الحرب ، وهي ثلاثون مليون روبية .

وكانت الأيام والليالي تمر وتنقضي والإنجليز يدأبون في بذل قصارى جهودهم للتفكك في صفوف السلطان ، وكسب العملاء من بينها ، ويحتالون للحرب الرابعة الحاسمة الأخيرة للقضاء البات على السلطان فتقر عينهم ويهدأ بهم وتحصل أغراضهم ، وتتحقق أهدافهم ، ففازوا في احتيالم ، واندلعت نار الحرب في مارس ١٧٩٩ م .

وكان اليوم الرابع من مايو عام ١٧٩٩ م يوماً مشهوداً قضى فيه السلطان المتحمس ، الغيور الأنف نحيبه .

أسفر الصبح وأرسلت الشمس أشعتها ، والسلطان متأهب للقتال ، فأشار عليه كاتب سره بالتفاهم والتنازل عن النضال قائلاً : يا مولاي ! يقتضى هذا الوقت الحرج وتستدعى هذه الساعة العصبية أن تبقى على نفسك ، وتشفق على أبنائك وتمد يديك للمسالمة ، فقال السلطان : "نحن نبذل الجهود لإنقاذ هذه السلطنة الإلهية التي هي ملك للمسلمين ، ولكن وزراءها يتمحلون لسقوطها وخرابها من وراء الستار ، إن المرء لا يصاب بالموت إلا مرة واحدة في حياته ولا بد منه فلا عائد إذن من المهابة والحذر ، فلا أبالي متى يأتي هذا الموت ، وأين يأتي ، وقد أسلمت نفسي ودريتي ضحية في سبيل الإسلام ، والشريعة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام ."

تم ركب فرسه وبرز إلى الوغى ، و اليوم قائظ ، و الأرض رمضاء ،
والسماء تمطر النار ، فالتحم الفريقان -- وقد كسب الإنجليز عملاء من وزرائه
وأركان دولته ، و من كان مستودع سره ، و موضع ثقته -- و حمى و طيس
المعركة ، وخاض السلطان غمارها ، وكان لا يخاف الموت ، ولا يهاب الردى ،
فقاتل وناضل ، وطارد وجالد ، وقتل عشرات من جنود الأعداء ، وكانت
كفتهم راجحة ، وقد قتلوا ألوفاً من جنود السلطان جثثهم متضرجة بالدماء
على الأرض أمام أعين السلطان ، فأشار عليه بعض من باع نفسه بأيدي
الإنجليز من معتمديه منادياً : يا سيدي ! لو أسلمت نفسك إلى الإنجليز
ليصفحن عنك وليكرمك احتراماً لعزك وجاهك ومنصبك ، فتارت ثائرتة
وفارت غيرته وحمى غيظاً واستشطاء غضباً ، وقال قولته المشهورة التاريخية
السائرة بصوت فيه حماسة وحرارة ، وطموح وغيره ونجدة وشجاعة وصدق
وأمانة : " حياة يوم واحد كالأسد خير من مائة عام من حياة الشغبر (ابن
أوى) " ، فما هو إلا قليل حتى رمى فرس السلطان بالرصاص فسقط فإذا به
راجلاً يشتبك بالأعداء إذ أصابته رصاصته ، ثم أخرى فما انسحب وما فتر
وقد أثنه الجراح ، وخارت قواه وناله إعياء عظيم ، وظماً شديداً ، وقد حمل
خادم له قربة ماء بأمره ، ولكن السلطان كلما طلب منه الماء رفض ، حتى
تضرع إليه أن يسقيه ولو قطرات من ماء ، ولكن الخادم الخائن الغدور الذي
قد باع نفسه وضميره بأيدي الإنجليز ، و وقع في حبالتهم أبى أشد الإباء ،
وأظهر الآن قبح ما أضمر في نفسه من الغدر والخيانة .

وهكذا جدد البطل الغيور سنة الحسين بن علي في كربلاء وكان علي
يقين بشهادته ، وقد بشره النبي الكريم ﷺ بها في المنام ، فأبدى لأصحابه توفقه
إليها ، وكان طائر روحه يخفق جناحيه ليفلت من الجسد المادي ، ويستريح
في مقره السرمدى ، فبينما هو كذلك يهاجم الأعداء إذ أصابته طلقات ناربية

(السلطان "تيبو" الشهير، حياته ومآثره)

متوالية فخر صريعاً ، ولفظ نفسه الأخير ، وفاضت روحه الطاهرة الزكية ، وصعدت إلى بارئها ، وأفلت شمس حياته مع أفول شمس ذلك اليوم ، ولكن الهيبة تغشاه ، جثته حارة ، وعينه مفتوحة ، والإنجليز يشكون في موته فدنا إليه أحدهم مذعوراً مشدوهاً وجس نبضه ، وتفحص جسده ، فأيقن بعوته ، ودفن في اليوم الذي يليه ٥/مايو ١٧٩٩ م (١) بعد الزوال ، وكان الوقت صائفاً والجو صافياً والسماء مصحبة لاغيم فيها ، فإذا بالجو عابس قائم والسحاب مترام ، وإذا بالرياح تهب صرصراً عاتية ، والعواصف سافية ، وإذا بالأرض نادية راثية ، والسماء صارخة باكية ، يشتد فيها الرعد والبرق ، وتنزل الديرم هواطل ، كأنها تلطم خديها وتسيل دموعها (٢) .

إن شهادة "تيبو" غيرت مجرى التاريخ وقطعت كل رجاء في استقلال البلاد في مدة قريبة ، وأمست الهند في أيدي الإنجليز الغلبة بدون تنافس ، فإنهم كانوا يهابونه جداً ، ويعدونه أكبر منافس وأعدى عدو لهم ويعتبرونه عقبة كداء في سبيل زحفهم وتحقيق نواياهم ؛ وكفيك في معرفة مدى خطره عندهم أن الجنرال "هارس" البريطاني ، قال يوم شهادته ، هو واقف بجانب جثمانه "من هذا اليوم ، الهند لنا" أي ملكنا اليوم بلاد الهند فلا يمنعنا مانع ، ولا ينافسنا أحده بعده ، كما صرح بذلك الجنرال "ويلزلي" الحاكم البريطاني العام في الهند وقتئذ : "لا يجترئ أحد من حكام الهند وأمرائها علينا بعد موت "تيبو" .

وقال "اسكات" : "إن أعظم بطولة وأفخم مآثرة للإنجليز في الهند هو

- (١) ومن خير المصادفات أنني أكتب حادث قتله هذا في نفس اليوم من نفس الشهر بعد مأتي عام ، كاني شهدت جنازته ، ثم دخلت مناحته ، وجلست أنديه ، وأرثي له ، وأنوح عليه .
- (٢) ليس هذا من أوهام الشاعر ، ولا من خواطر الأديب ، بل هو واقع التاريخ .

انهيار "تيبو" .

ولما وصل "ويلزلي" إلى "كلكتا" في العام القابل احتفل احتفالاً عظيماً ،
وقام بمظاهرة كبيرة فاقت جميع المظاهرات البريطانية في الهند ، ونقل كل واحد
من الضباط العسكريين وأمراء الجيش ، ومنحهم الوسامات .

وقال "كارنوالس" الحاكم البريطاني في الهند حين الحرب الثالثة
لميسور : "لو تركنا "تيبو" على ما كان عليه وأغفلناه لاضطررنا إلى أن نودع
الهند تلك الساعة ، ثم لا نلتفت إليها طمعاً استعمارها" .

وكان كذلك حقاً فإن كان قد وقف حياته كلها للدفاع عن الوطن ولخدمة
الإسلام ، فبذل ما في وسعه من الجهود : راسل الأمراء والحكام الإقليميين في
مختلف أنحاء الهند يدعواهم لطاردة الإنجليز ، ولم يقتصر على ذلك بل أرسل
سفارة إلى الخليفة العثماني السلطان سليم الثاني ، وإلى حاكم إيران ، وإلى
أفغانستان يستنجد منهم ، ويطلب المساعدة العسكرية لقمع الاستعمار ،
وتشريد الإنجليز من بلاد الهند ، وليهيبى الجو خلافتهم على نطاق واسع في
العالم كله ، لأنه تراءى له بفراسته وفطنته مراميهم وأهدافهم ، وهي في جملة :
"التسيطر على العالم الإسلامي برمته وتشكيك المسلمين في عقائدهم ودينهم
وتاريخهم المجيد" .

وكان كثيراً ما يقول : "إن الإنجليز خطر مهدد للهند وللإسلام كليهما"
كما صدقه الدهر فيما بعد ، فاستهلك حياته للذود عن الوطن والدفاع عن
الإسلام .

[للحديث صلة]